النظام الأخلاقي في الإسلام

إعداد: د. موسى معطان د. منى رفعت

وتشتمل هذه الوحدة على العناوين التالية:

١- مفهوم الأخلاق

٢- أهميّة الأخلاق في الإسلام

٣- العوامل المؤثرة في الأخلاق

٤- قواعد الأخلاق

٥- خصائص النظام الأخلاقي في الإسلام

٦- الفلسفة المادية للأخلاق

مقدمة

الإسلام دين الأخلاق، فلم يُعرف عن دين أو نظام أنه اهتمّ بالأخلاق مثلما عرف عن الإسلام، وما من ميّزة تميز الإسلام بها كما تميّز بالأخلاق. وتميزت الأمة الإسلاميّة بالأخلاق، وليس أدلّ على ذلك من أنّ أكثر من دخل في الإسلام قديماً، خاصة في شرق جنوب آسيا، وهي بقعة يقطنها معظم المسلمين اليوم – إنما دخل فيه بسبب أخلاق التجار والجنود المسلمين الفاتحين.

سئل الخوارزمي عالم الرياضيات عن الإنسان فأجاب :

اذا كان الانسان ذو اخلاق فهو = 1

وإذا كان الإنسان ذا جمال فأضف إلى الواحد صفرًا = 10

وإذا كان ذا مال أيضًا فأضف صفرًا آخر = 100

وإذا كان ذا حسب ونسب فأضف صفرًا آخر = 1000

فإذا ذهب العدد واحد وهو الأخلاق ذهبت قيمة الانسان وبقيت الأصفار .

أولاً: مفهوم الأخلاق

الأخلاق هي:

الصفات النفسيّة والسلوكيّة للإنسان القابلة للمدح أو للذم.

فالصفات النفسية المحمودة مثل: حبّ الخير للآخرين وإحسان الظن بالناس.

والصفات السلوكية المحمودة مثل: الصدق والبر والوفاء بالعهود، وقل عكس ذلك في الصفات النفسية والسلوكيّة المذمومة.

وقيد القابلة للمدح أو الذم: يفيد تمييز الأخلاق عن الصفات والدوافع الغريزية، مثل الأكل عند الجوع، والخوف عند وجود موجباته، فإنّ ذلك كلّه ليس ممّا يحمد أو يذم، بخلاف الكذب أو الصدق.

أفكّر: ما العلاقة بين الصفات النفسيّة والسلوكيّات الخارجة عن الإنسان؟

ثانياً: أهمية الأخلاق في الإسلام

الأخلاق ضرورة حتميّة لقيام أي مجتمع وتقدمه، ولنتخيل مجتمعاً يسوده الكذب مثلاً، أو خيانة الأمانة، كيف يمكن أن تكون علاقات أفراده بعضهم ببعض؟ وهل يمكن تصور تعاملهم وتعايشهم أصلاً؟ ولذلك اهتم الإسلام بالأخلاق اهتماماً كبيراً، ومن مظاهر هذا الاهتمام:

1. اقتران الدعوة إلى الأخلاق بالدعوة إلى التوحيد
2. جعل مكارم الأخلاق من أهم صفات الرسول ﷺ ومن أهم غايات بعثته.
3. جعل مكارم الأخلاق من أكثر الأعمال أجراً وقربة إلى الله تعالى

١- اقتران الدعوة إلى الأخلاق بالدعوة إلى التوحيد

١- رفع الله الأخلاق إلى منزلة تقارب منزلة التوحيد، كما في قوله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الإسراء: ٢٣

٢- وجعل الدعوة إلى مكارم الأخلاق، جوهر الرسالات السماوية، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ الحديد: ٢٥

قال تعالى:

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

٢- جعل مكارم الأخلاق من أهم صفات الرسول ﷺ ومن أهمّ غايات بعثته

١- كان النبي ﷺ الكريم متميزاً بأخلاقه الكريمة قبل البعثة، حتى عُرِفَ بين الناس بـِ (الصادق الأمين)

وهذه خديجة – رضي الله عنها- تصف لنا أخلاق النبي ﷺ قبل الإسلام، فتخاطبه مواسية ومهدئة: (كلا والله، ما يُخزيك الله أبداً، إنك لَتَصِلُ الرحم، وتحمِلُ الكلَّ، وتُكسِبُ المعدوم، وتُقرِي الضيف، وتُعِين على نوائب الحق).

ومعنى تَحمِل الكلَّ: أي تتحمَّل أثقال الفقراء والضعفاء والأيتام بالإنفاق عليهم وإعانتهم بالمال، **أما تكسب المعدوم فتعني:** أنك تتبرَّع بالمال لمن لا يجده، **وتَقري الضيف معناها:** أنك تُكرم ضيوفك، **وأما معنى تُعين على نوائب الحق:** أي تُعين الناس فيما يصيبهم من خير أو شر.

وهكذا امتاز النبي ﷺ بأخلاقه، حتى إنّ الله تعالى لم يمدحه بكثرة الصلاة والصيام والصدقة وغير ذلك مما عُرِفَ به، وإنما مدحه بأخلاقه الكريمة، فقال تعالى: وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ

٢- وهذا يدل على أنّ حسن خلقه ﷺ كان له الدور الأكبر في منزلته العظيمة التي بلغها عند الله تعالى، ومن أهم أسباب اصطفائه نبياً، ولا عجب، فجوهر الإسلام الدعوة إلى مكارم الأخلاق، كما قال النبي ﷺ : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

٣- جعل مكارم الأخلاق من أكثر الأعمال أجراً وقربة إلى الله تعالى

كثرت نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية التي تبيّن عظيم ثواب الأخلاق، وتجعل المتصفين بها أقرب الناس منزلاً من النبي ﷺ يوم القيامة، ومن ذلك:

- **قوله تعالى:** ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ فصلت: ٣٤ - ٣٥

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: (لم يكن النبي ﷺ فاحشاً ولا متفحّشاً، وكان يقول: إنّ من خِياركم أحسنَكم أخلاقاً).

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

هل يمكن لسريع الغضب أن يُصبح حليماً وللبخيل أن يغدو كريماً؟ وفي المقابل هل يمكن أن يصبح الحليم حادّ المزاج؟ وأن يصبح الكريم بخيلاً؟ أم أنّ الله تعالى خلق الناس على سجايا مختلفة لا تتغيّر؟ وطَبَعَهم بطباعٍ متفاوتة لا تتبدّل؟

والجواب: أنَّ هناك عاملين رئيسين يؤثران في أخلاق الإنسان:

١- عامل خَلقي: طبع الله تعالى الإنسان عليه.

٣- وعامل اكتسابي: يعود إلى البيئة التي ينشأ فيها المرء، وإلى ما يبذله كل إنسان من جهد في تغيير أخلاقه.

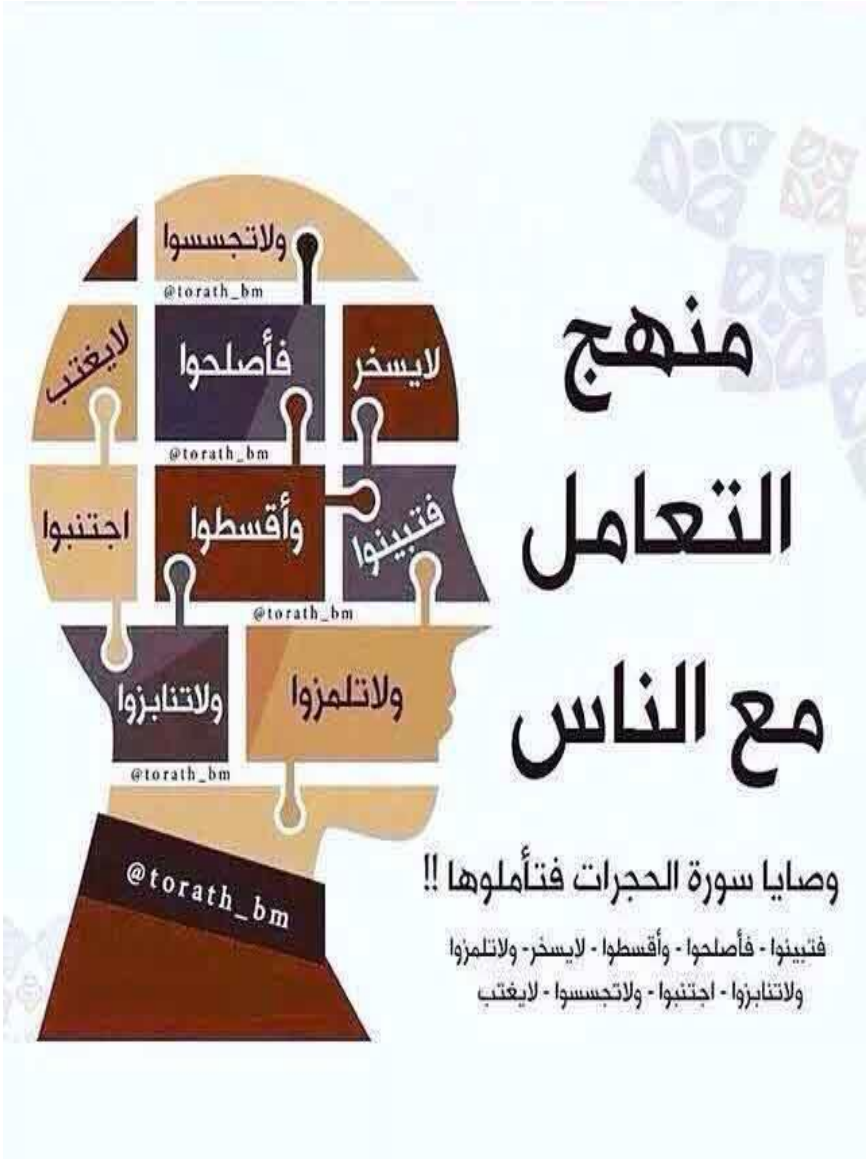

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

فالله تعالى خلق الناس متفاوتين في ميولهم واستعداداتهم وطباعهم، وهذا ملحوظ بوضوح، ومنذ الصغر:

١- فبعض الأطفال مثلاً، تتضح عليهم سمات الهدوء والوداعة،

٢- وبعضهم تبرز فيه الحدة وضيق المزاج وشدة الانفعال والصراخ،

٣- وبعض الأطفال يميلون أكثر إلى مساعدة الآخرين، بينما يميل آخرون أكثر إلى الاستئثار، وربما إلى شيء من العدوانيّة.

ولذلك وردت نصوص شرعيّة تفيد بأنّ الإنسان يُخلق مطبوعاً على أخلاق معيّنة، ومن ذلك:

وفي رواية: (قال: يا رسول الله أشيءٌ جُبِلْتُ عليه أم شيء حدث لي؟ قال رسول الله ﷺ : بل شيء جُبِلْتُ عليه).

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

لكـــن هـــذه الميـــول والاســتعدادات، إنّمــا هــي بمثابة البذرة:

- تبقـــى مســـتكنة: إذا لم تُعهّد بالعناية ولم تتوافر لها الظروف الملائمة.
- وتظهـــر وتنمـــو: إذا وجـــدت إرادة وظـــروف لتنميتها.

ســواء أكانــت فــي اتّجــاه الخير أم في اتجاه الشرّ.

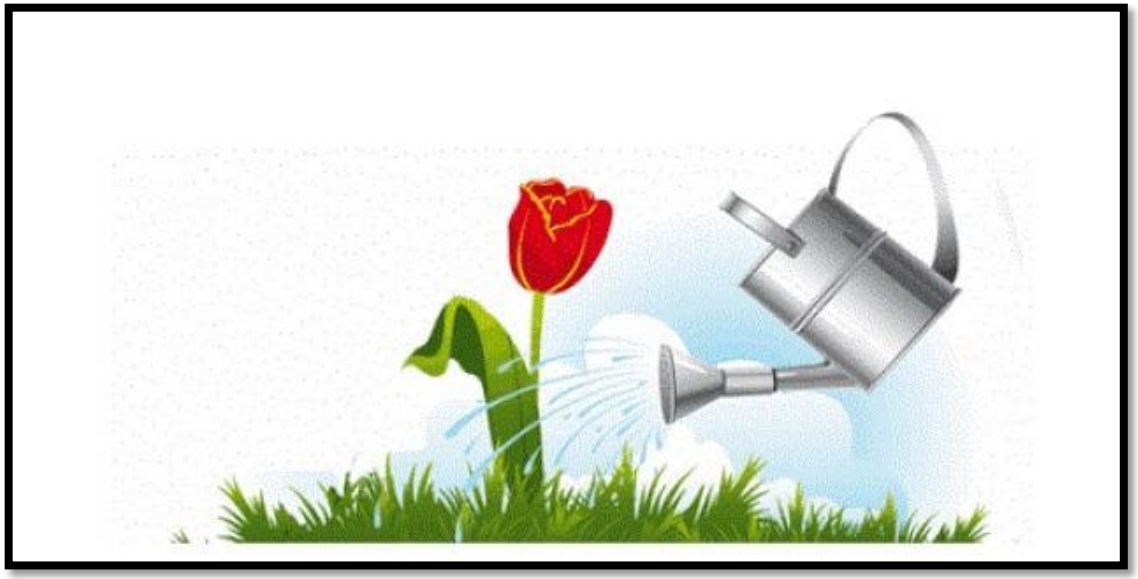

ولذلك :

١- وردت نصوص شرعية تفيد بأنّ الأخلاق تُكتسب، وأنّ الإنسـان هـو مـن يزكّـي نفسـه ويربيهـا علـى الأخـلاق الفاضلة، أو يهوي بها إلى حضيض الأخلاق السيئة.

٢- ومن هنا أيضاً كانت الأخلاق الحسنة سبباً للمدح وعلوّ الدرجات، بينما كانت الأخلاق السيئة سبباً للذم ونزول الدركات.

ثالثاً: العوامل المؤثرة في الأخلاق

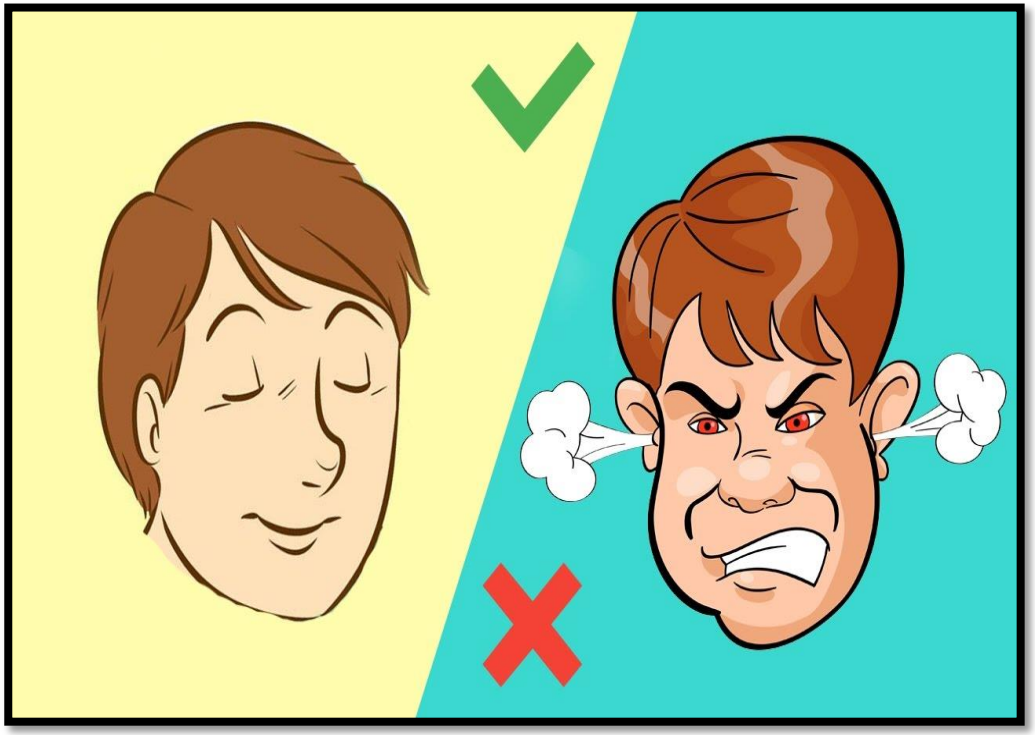

ولكن لو فرضنا شخصين، أحدهما يميل إلى الهدوء، بينما يتّصف الآخر بالحدّة وسرعة الانفعال، وأنّهما خضعا لظروف متشابهة تنمّي الميل إلى الحلم،

فإنّ الثاني ستخفّ حدَّته دون أن يصلَ إلى درجة الحلم التي وصل إليها الأول، وهذا معنى قول النبي ﷺ: « النّاسُ معادنُ كمعادنِ الفضّة والذهبِ، خِيَارُهم في الجاهلية خِيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا».

أناقش: قد يسوّغ بعض المجرمين جرائمهم، بأنهم مجبولون على الشرّ، ما رأيك في ذلك؟

رابعاً: قواعد الأخلاق

ما معايير التمييز بين حسن الأخلاق وقبيحها؟ وكيف يمكن التزام الأخلاق الحسنة؟ يمكن استخلاص قواعد شرعيّة لذلك، من أهمها:

- التزام الشرع
- تزكية النفس عن الهوى
- تكلّف الأخلاق الحسنة

- معاملة الناس بمثل ما تحبّ أن يعاملوك به
- الابتعاد عن كل ما يجد الإنسان في نفسه منه شيئاً
- اختيار الرفيق الصالح
- الاقتداء بالصالحين

١- التزام الشرع

إنّ خيرَ ميزان لتمييز الأخلاق الحسنة، وأفضل ما يساعد على التخلق بها ، التزام الإسلام وأحكامه، فإنّ الإسلام لم يأمر إلا بكلّ حسن، ولم ينهَ إلا عن كل قبيح،

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ النحل: ٩٠

٢- تزكية النفس عن الهوى

قد تزيّن نفس المرء له قبائح الأعمال فيراها حسنة، وتأمره بالسوء، وتسوّل له الظلم والعدوان، ومن نظر في كثير من الرذائل والأخلاق الذميمة، لوجد أن سببها الرئيس هوى في النفس ومبالغة في حب الذات والشهوات.

أتأمل: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ الحشر: ٩

يوضح أثر النفس وسلطانها، حيث يصور شح النفس رجلاً شديد المراس، يهجم على صاحبه، وليس أمامه إلا أن يصده بقوة وبواق شديد يرده، وليس ذلك الواقي إلا تزكية النفس.

ومن هنا اهتمّ الإسلام بتزكية النفوس وتأديبها وتهذيبها، حتى تحتكم للحق وللخير ولا تنساق وراء هواها ووساوسها الأمّارة بالسوء.

أتأمل: هذه الآية الكريمة تبيّن أن للعبادة أثراً كبيراً في تخلص الإنسان من الأخلاق الذميمة، حتى تلك التي طبع عليها.

٣- تكلّف الأخلاق الحسنة

نعني بتكلف الأخلاق الحسنة: أن يحمل المرء نفسه على التخلق بالأخلاق الفاضلة والتخلص من الرذائل، وذلك يكون بالتدرب على السلوك القويم، وهجر كل ما يشين، حتى يصبح الخلق الجديد عادة وسجية مستقرة في النفس، وذلك يشبه تنمية الجسد وتقويته بالرياضات البدنيّة.

١- فمن يكذب يتحرى الصدق حتى يصبح الصدق سجية فيه.

٢- ومن يسرع إليه الغضب لأتفه الأسباب ليتصنّع مظاهر الهدوء والحِلم عند كل موجة غضب.

٣- ومن يعاني من البخل، ليتكلّف الإنفاق في مواطنه.

وهكذا في جهاد يتدرج فيه المرء في مراتب الكمال.

٣- تكلّف الأخلاق الحسنة

يقول الميداني: « أن التدريب العملي والممارسة التطبيقيّة، ولو مع التكلّف في أوّل الأمر، وقسر النفس على غير ما تهوي، من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية العادة السلوكية، طال الزمن أو قصر، والعادة لها تغلغل في النفس يجعلها أمراً محبباً، وحين تتمكّن في النفس تكون بمثابة الخلق الفطري، وحين تصل العادة إلى هذه المرحلة تكون خلقاً مكتسباً، ولو لم تكن في الأصل الفطري أمراً موجوداً ».

أناقش: من الأمثال الشائعة: « الطبع غلب التطبّع ». ما رأيك في ذلك؟

٤- معاملة الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به

هذه القاعدة تشتمل على ميزان دقيق يحدد السلوك الحسن، فعند كل سلوك للإنسان مع الآخرين، ليتخيّل نفسه مكانهم وهم مكانه، ولينظر هل يرتضي ذلك النوع من السلوك منهم في حقه أم لا، وعلى ضوء ذلك ليقرر كيف يعاملهم.

وهكذا يستقيم سلوك الإنسان:

١- ويلتزم الصدق مع الآخرين، لأنه يحب من الآخرين أن يكونوا صادقين معه.

٢- وسيكون أميناً معهم، لأنه هكذا يحب أن يكونوا معه.

٣- ولن يحقد أو يحسد أو يغتاب، لأنه لا يحب ذلك من الآخرين تجاهه.

٥- الابتعاد عن كل ما يجد الإنسان في نفسه منه شيئاً

من فضل الله تعالى على الناس أنه فطرهم على الخير، وكل من يقدم على شر أو عمل قبيح، فإنه يحسُّ بتلك الفطرة تنازعه وتمانعه، وحتى عندما تلتبس عليه الأمور، فإنه يجد نوعاً من الصراع الداخلي والتردد.

فالحديث الشريف يضع معياراً نفسياً دقيقاً للتمييز بين الصواب والخطأ، والحسن والقبيح، خاصة في الأمور المشتبهة، ومن يتأمل في كثير من الأفعال المستقبحة التي يرتكبها الإنسان، يجد أنه قارنها أو سبقها ذلك الشعور النفسي الخفي، الذي يقوم على التردد والتشكك، مع الحرص على إخفاء الأمر عن الآخرين.

٦- اختيار الرفيق الصالح

للرفيق أثر كبير في سلوك رفيقه وأخلاقه، وهذا أمر ملحوظ، ولذلك قيل في المثل الدارج: (الصاحب ساحب) ، ومن هنا ركّز الإسلام على أهميّة اختيار الريق الصالح ، وحذّر من رفقة السوء.

٧- الاقتداء بالصالحين

إنّ للنموذج الحي والقدوة العمليّة أثراً كبيراً في النفس، وقد كان من فضل الله تعالى على الناس، أنه لم يكتفِ بأن أمرهم بالتزام الأخلاق الفاضلة والتخلّق بها، بل ضم إلى ذلك إيجاد نماذج حيّة، ضرب المثل بهم وأمر بالاقتداء بأخلاقهم، وعلى رأس هذه النماذج نبينا ﷺ، الذي كانت أخلاقه تطبيقاً عملياً لكل ما دعا إليه القرآن الكريم.

وكل من سار على هدي الله تعالى ورسوله ﷺ فهو قدوة ينبغي احتذاؤها، وعلى المسلم أن يحذر من الإعجاب بغير الصالحين والمهتدين أو التعلّق بهم والميل إليهم، لأن ذلك من أكبر أسباب انحدار الأخلاق وسوء السلوك.

خامساً: خصائص النظام الأخلاقي في الإسلام

يتميّز النظام الأخلاقي في الإسلام بخصائص من أهمّها:

١- الثبات

يقيم الإسلام الأخلاق على أساس ثابت متين لا يتغيّر ولا يتزعزع هو أساس الدين والعقيدة، وهو ما يَسِمُها بالثبات، فالالتزام بالأخلاق في الإسلام مسألة مبدأ، وليس التزاماً مرتبطاً بالمصلحة يتبدّل بتبدّلها، ولا بالظروف يتغيّر بتغيّرها، ولا يمكن أن يفرّط المسلم بها بحال، فالمسلم يلتزم الصدق مثلاً، ولو لم يوافق مصلحته الخاصة في بعض الأحيان، ودافعه في ذلك نيل رضوان الله تعالى.

١- وبقدر ما يكون المسلم متمسكاً بعقيدته يرتقي في أخلاقه.

٢- بينما يدل سوء الأخلاق على ضعف العقيدة ووهنها في النفس.

يقول النبي ﷺ:

ومن هنا كانت علامات النفاق مساوئ الأخلاق: الكذب في الحديث، وإخلاف الوعد، والغدر عند العهد، والفجور عند المخاصمة.

٢- الدافع الذاتي

ركّز الإسلام على إيجاد دوافع ذاتية قوية في نفس المسلم تفوق قوة الدوافع المادية الآنية ، وتحمله على الالتزام بالأخلاق في كلّ حالاته، ولو لحقه من ذلك ضرر دنيوي أو فاته نفع مادي، لأنه يرجو في الآخرة نفعاً أعظم ويخاف عقاباً أعم.

وذلك يضمن التزام أفراد المجتمع بها في السر والعلن وفي كل حال، ويحقق النفع العام الذي يعود على كل أفراد المجتمع، سواء أعادت على الملتزم بها بنفع مادي أم لم تعد، وسواء وجدت رقابة الدولة والمجتمع أم لا.

٣- الشمول

أوجب الإسلام التزام الأخلاق في كل ميادين الحياة:

١- فهي أخلاق تحكم العلاقة الزوجية على أساس من العشرة بالمعروف والتواد والتراحم، وعلاقة الابن بوالديه بالبر والطاعة، وعلاقة الوالدين بأولادهما بالرفق والرحمة.

٢- وهي أخلاق تحكم علاقة الفرد بمجتمعه على أساس الصدق والكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، كما تحكم عالم المال بالكرم والبذل والبعد عن البخل والإسراف وعن التفاخر بالأموال.

٣- الشمول

٣- وهي أخلاق تحكم علاقة الحاكم بالمحكومين على أساس العدل والشورى والطاعة بالمعروف، وتحكم علاقة المسلم بغير المسلم من إحسان وبرّ وقسط.

٤- وهي أخلاق تحكم المسلم حتى في تعامله مع أعدائه حالة الحرب، من وجوب الوفاء بالمعاهدات والابتعاد عن الغدر وعن قتل المدنيين المسالمين.

٥- وهي أخلاق تحكم المسلم في تعامله مع البيئة، فتوجب عليه الابتعاد عن التخريب والإفساد في الأرض.

سادساً: الفلسفة المادية للأخلاق

تقوم الفلسفة المادية للأخلاق على أساس مادي نفعي، وهو:

أنّ أي عمل أو خُلُق يُحكم عليه بأنه صواب أو خطأ، خير أو شر، بقدر ما يعود على صاحبه من نفع ولذة.

فالخير هو ما يعود على الإنسان بنفع مادي، والشر هو ما يعود على الإنسان بألم مادي وخسارة مادية.

سادساً: الفلسفة المادية للأخلاق

وهذه الفلسفة يتوجه عليها انتقادان جوهريان:

الأول: أنها فلسفة تهدم الأخلاق الإنسانية من أساسها، حيث تقرر « نسبيّة الأخلاق»، وعدم وجود مقياس إنساني عام لها، من دين أو ضمير أو حسّ إنساني مشترك، وإنّما يغدو مقياسها مقياساً مادياً نفعياً محضاً، يختلف باختلاف العادات والتقاليد والزمان والبيئة والظروف والأشخاص، فليس هناك فضيلة مطلقة ولا رذيلة مطلقة.

وعلى سبيل المثال:

١- لا يعود هناك معنى لفضيلة العفّة، إذا دفع مبلغ كبير للتحلل منها.

٢- ويغدو نهب ثروات الآخرين وظلمهم واحتلال بلادهم، فضائل أخلاقية بالنسبة إلى من يقوم بها، لأنها تعود بالنفع عليه.

سادساً: الفلسفة المادية للأخلاق

الثاني: أنها فلسفة تجرّد الإنسان من إنسانيته، والواقع يثبت أنّ الإنسان ليس حيواناً بيولوجياً محكوماً بشكل آلي لحسابات اللذة والألم، وإنما هو مخلوق متميّز متجاوز للمرجعيّة الماديّة المحضة، ولذلك يصعب على الفلسفة النفعيّة تفسير قيام الناس بأعمال أخلاقيّة عظيمة تخلو من المنافع المادية.

على سبيل المثال:

١- أداء الواجبات الاجتماعية التي تتضمن تضحية من أجل الآخرين، كالعناية بذوي الاحتياجات الخاصة والمرضى الذين لا أمل في شفائهم.

٢- ومثل المخاطرة في سبيل إنقاذ إنسان مشرف على الهلاك، ومثل التضحية في سبيل قيم معنوية، كالتضحية بالنفس من أجل الوطن أو القيم الإنسانيّة أو من أجل الشرف.